

مختارات من أقوال القديس صوفروني عن علم النفس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

الأقوال التالية هي اقتباسات من كتاب "أنا أعرف رجلاً في المسيح"، للمطران ييروثيوس فلاخوس مطران نافباكتوس [١]. وقد صدر هذا الكتاب بعدة لغات. الأرقام في نهاية كل مقطع تشير إلى الصفحة التي يرد عليها هذا القول في النسخة الإنكليزية من الكتاب [٢].

إن محبة الناس المتزايدة لعلم النفس أمر فظيع. علم النفس يساعد الموجودين في الغرب، لكن من المخيف أن يتعلم الأرثوذكس علم النفس ويستبدلون به تقليد الكنيسة الصحوي. يجب علينا تقويض محبة المسيحيين الأرثوذكسيين لعلم النفس، لأن المنهجية النفسية خارجة عن التقليد الأرثوذكسي، وفي نفس الوقت تتميز بالعقلية الغربية (ص ٢٦٩).

الغرب كله تأثر بالقديس أوغسطين. في الواقع، النظرية الأوغسطينية نفسية إذ إنها تعالج الله نفسياً. يوجد في اليونان اليوم اتجاه ملحوظ نحو علم النفس، وهذا هو سبب دراسة القديس أوغسطينوس كثيرًا. قد يكون القديس أوغسطينوس قديساً، لكن عمله عرضة لاستغلال كثير. (ص ٣٤٥)

هناك فرق كبير بين التقليدين الأرثوذكسي والغربي. علم النفس مضبوط على التقليد الغربي، لذلك هو يختلف اختلافاً كبيراً عن التقليد الأرثوذكسي. (ص ٣٥٨)

أنا أتأسف على الآباء الروحيين الذين يؤكّدون أن الحياة الروحية ليست كافية وأن علم النفس ضروري أيضاً. (ص ٣٦٨)

الأنثروبولوجيا التي يستخدمها علم النفس البشري مختلفة. هرطقة إلى حد ما، خطيرة. من السيئ أن آباءً روحيين يستخدمونها. إنها تساعد وبشكل محدود من تنقصهم الخبرة في فهم الآخرين، لكنها مضرّة. وللأمور الروحية أيضاً انعكاسات نفسية، كما يتضح من مراقبة الأرثوذكس واللاتينيين. إلى هذا، الأشياء النفسية ليست روحية. (ص ٣٦٤)

إن نقاط انطلاق علم النفس والحياة الروحية مختلفة. كذلك أنثروبولوجيا كل منهما تختلف عن الأخرى. ومع ذلك، لا يمكننا إهمال علم النفس الذي، بشكل أساسي، يساعد الأشخاص الملحدين ممن لا يريدون استخدام التقليد الهدوي للكنيسة. إنه علاج الأشخاص البعيدين عن الله الحي والذين يعانون من العذاب الرهيب. يجب استخدامه بحكمة وتمييز. قد يساعد الدواء الجسد الذي عانى ضرراً خطيراً من مشاكل مختلفة، لكن الشفاء يأتي من خلال تجديد الإنسان بنعمة الله. الصلاة هي من يعالج جراح الروح (ص ٢٢٧).

إن الرأي القائل بأن كل ما هو نفسي هو أيضًا روحاني، وأن كل ما هو روعي هو أيضًا نفساني، هو حَظَر مميّت. من الخطير جدًّا بالنسبة لنا اعتبار مشكلات الناس النفسية على أنها حالات روحية. إن رأياً كهذا هو تجديف على الله. يجب أن يحدث العكس تمامًا، أي يجب أن نميّز الحياة الروحية عن الحياة النفسية (ص ٣٥٨).

طوال سنواتنا في الدير هنا في إنجلترا، لم أقابل أبدًا أيّ شخص عولج بالتحليل النفسي، على الرغم من أنه متطور للغاية في المجتمعات الغربية، بل لنكون منصفين، إن أطباء الأعصاب والأطباء الذين يصفون الأدوية للمرضى هم أكثر تواضعًا من المحللين النفسيين، ويساعدون الناس على أن يصبحوا متناغمين اجتماعيًا. كما أنهم يساعدون أبناء الكنيسة عندما يواجهون مشاكل ذات طبيعة عصبية لأسباب مختلفة (ص ٣٥٨).

إن ملاحظات علم النفس عن البشر مهمة، لأنها توضح أنّ خارج القوة العقلانية هناك شيء أكثر عمقًا. أما التحليل النفسي فهو طفولي مقارنة بتعليم آباء الكنيسة. على الرغم من أهمية ملاحظات علم النفس، إلا أن الطريقة العلاجية التي يقدمها فظيعة. التحليل النفسي لا يعالج الإنسان، بل هو يزيد من ارتبائه (ص ٣٥٨).

لا ينبغي على المرء أن "يتجسس" على نفسه، بل أن يقتني توبة عميقة (ص ٢٨٦). هناك فرق بين علم النفس والحياة في المسيح. يحاول علم النفس تخليص الإنسان من عقدة الذنب، بينما في الحياة في المسيح نشعر بالحزن والألم لبعدينا عن الله، ولا نكف عن التوبة إلى أن يتبدل هذا الحزن (ص ٣٤٣-٤).

[1] Metropolitan Hierotheos of Nafpaktos (2015). *I Know a Man in Christ: Elder Sophrony the Hesychast and Theologian*. Holy Monastery of the Birth of the Theotokos; Greece.

[٢] علّق أحد الكهنة الذين درسوا علم النفس في الثمانينيات على هذه الاقتباسات قائلاً: "علم النفس اليوم، لم يعد له نجم يرشده، ولم يعد لديه شيء خارج نفسه للنظر إليه كنموذج. لقد صار ممتصاً ذاتياً. كل ما يرضي الشخص يمكنه فعله. لقد اكتسب أخلاقيات النقافة الموجود فيها".